بقلم

رئيس التحرير

د.ق.أندريه زكي

رئيسُ الطائفةِ الإنجيليَّةِ بمِصْر

رئيسُ الهيئةِ القبطيَّةِ الإنجيليَّةِ للخدماتِ الاجتماعيَّةِ

الميلاد...
رسالة السلام في عالم مضطرب

تختلف أجواء الاحتفال بعيد الميلاد حول العالم بحسب الثقافات والتقاليد المحلية؛ إذ تتزين المنازل والمحلات التجارية بأضواء وزينة ملونة، وتُعلَّق زينة الميلاد؛ مثل شجرة الميلاد والكُرَات والنجوم. ويزين كثيرون شجرة الميلاد في المنزل بالزينة والأضواء. وتُعتبر هذه الشجرة رمزًا مهمًا لاحتفالات الميلاد، كما يُعَدُّ تبادل الهدايا جزءًا مهمًا من احتفالات عيد الميلاد. يتبادل أفراد العائلة والأصدقاء الهدايا، وتُنظَّم فعاليات متنوعة كالعروض الفنية، والحفلات الموسيقية، والفعاليات الاجتماعية التي تجمع الأهل والأصدقاء. يجتمع الناس في هذا الوقت للاحتفال بالمحبة والسعادة، وعادةً ما تكون الأجواء دافئةً ومليئةً بالبهجة والتسامح.

لكن قصة الميلاد -كما يخبرنا عنها الكتاب المقدس- كانت مليئةً بالتحديات والأمور الصعبة؛ فمريم -الفتاة الصغيرة التي كانت تحمل في أحشائها مالك كل الوجود- لم تجد مكانًا لتلد فيه سوى مذود بسيط؛ لم تجد مهدًا لولادتها سوى هذا المكان الحقير، وكانت في الغالب وحيدةً، بعيدةً عن أمها أو إحدى قريباتها ليقفن بجوارها في أثناء ولادة أول طفل لها، كما لم تجد من يقيمون الأفراح بمناسبة ولادتها لطفلها البكر، فاتح الرحم، والذي له مكانة خاصة في اليهودية.

لم يكن المهنئون بولادة ملك الملوك ذوي مكانة، بل كانت البشارة لرعاة متبدِّين بسطاء، وقاد النجمُ أمميِّين من المجوس، وحتى حين ذهبتْ للهيكل حسب التقليد بعد أيام طهارتها يخبرها سمعان الشيخ قائلًا لها: «وَأَنْتِ أَيْضًا يَجُوزُ فِي نَفْسِكِ سَيْفٌ»، ويا لها من نبوة! وَأَمَّا مَرْيَمُ فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هذَا الْكَلاَمِ مُتَفَكِّرَةً بِهِ فِي قَلْبِهَا.

وبعد انصراف المجوس، يظهر ملاك الرب ليوسف في حلم قائلًا: «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمِعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ»، ولمرة أخرى، بدلًا من أن تعيش مريم حياةً هادئةً مطمئنةً تتغرَّب في أرض غريبة، لا تعرف شعبها، ولا لغتها. وبعد هروب الطفل يسوع يخبرنا الكتاب المقدس أن هيرودس «قَتَلَ جَمِيعَ الصِّبْيَانِ الَّذِينَ فِي بَيْتَ لَحْمَ وَفِي كُلِّ تُخُومِهَا، مِنِ ابْنِ سَنَتَيْنِ فَمَا دُونُ، بِحَسَبِ الزَّمَانِ الَّذِي تَحَقَّقَهُ مِنَ الْمَجُوسِ». وهنا تعلو أصوات الخوف والذعر بدلًا من أصوات الاحتفال بالطفل المولود.

لكن القصة لم تنته عند هذا الحد؛ إذ رجع المسيحُ بعد موت هيرودس من مصر، وعاش في الناصرة إلى أن كبر، وبدأ خدمته، وأعلن رسالته السامية للجميع دون تفريق، ليحقق نبوة الملائكة التي رنمت لحظة ميلاده: «الْمَجْدُ للهِ فِي الأَعَالِي، وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ، وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ». لقد أعلن يسوع في ميلاده وحياته وخدمته وموته أن على الأرض السلام.

وحين نقارن ملابسات الميلاد بما يحدث الآن بجوارنا في فلسطين، نجد أن احتفالات الميلاد تحولت إلى تأوهات وآلام على فقدان الأطفال. وتُعتبر منطقة الشرق الأوسط -في هذه الأيام- واحدة من أبرز المناطق في العالم التي تشهد أزمات دائمة تتسارع وتتفاقم. وفي قلب هذه الأحداث الصاخبة، والحرب الدائرة في فلسطين، قد نقع فريسة للهموم والإحباطات وفقدان الأمل، فالواقع الذي نعيشه لا يعبِّر عن بارقة ضوء أو أمل في الأفق.

لكن يظل عيد الميلاد المجيد يسطع كشعلة من النور والأمل. في هذا الزمان الذي يعج بالتحديات وانعدام الاستقرار، ويظهر عيد الميلاد كفرصة للتأمل والتفكير في سُبُل تحقيق السلام في هذه المنطقة المضطربة. يمنحنا الميلادُ الأملَ في اتساع دائرة السلام، لتشمل جميع أركان العالم. يعكس الميلاد فكرة الوحدة والتسامح؛ حيث يجتمع الناس مهما اختلفوا في الأصل أو الدين. في زمن يشهد فيه العالم صراعات ونزاعات، يمكن أن يكون عيد الميلاد فرصة للتأمل في قِيَم السلام والمحبة.

تقدم رسالة المسيح نموذجًا للسلام والتسامح. كانت رسالته تدعو إلى محبة الجار والعدو على حد سواء. إنها رسالة للجميع دون استثناء، حيث لا تفرق بين الألوان أو الأعراق أو الديانات. تأتي رسالة المسيح كتذكير بأننا جميعًا إخوة وأخوات في هذا الوجود، ويمكننا تحقيق سلام حقيقي عندما نتقاسم المحبة والاحترام بين بعضنا البعض.

إن تحقيق حلم بشرق أوسط سلميٍّ يتطلب العمل المشتَرَك من جميع أفراد المجتمع. يجب علينا أن نتحد كشركاء في بناء جسور التواصل وتعزيز التفاهم المتبادل. إن الاستماع لبعضنا البعض وفهم الثقافات المتنوعة يمثل خطوة أولى نحو التغيير الإيجابي. وتلعب القيادات السياسية والدينية دورًا حيويًّا في تحقيق هذا الحلم.

لذلك، يمكننا أن ننظر إلى عيد الميلاد المجيد كفرصة لنعيش قِيَم السلام والتسامح في حياتنا اليومية. يمكن أن يكون هذا العيد دافعًا للتفكير في كيف يمكننا أن نساهم في بناء جسور من الفهم والمحبة بين مجتمعاتنا. إن تذكيرنا برسالة الميلاد يعزز فكرة أن السلام ليس مجرد حالة من عدم الحرب، بل هو حالة من التواصل والتعايش السلمي.